الدكتور عبد الجليل الطاهر (١٩١٧ – ١٩٧١) كتابه "مسيرة المجتمع"

أ. د. لازم لفته المالكي

جامعة البصرة – كلية الدراسات التاريخية

حياتــه [*] :

ولد عبد الجليل علي الطاهر في مدينة القرنة ، محافظة البصرة عام ١٩١٧ ، واكمل دراسته الابتدائية في مدينة القرنة ، دخل الى دار المعلمين الريفية وكان ذلك في عام ١٩٢٩ فتخرج منها عام ١٩٣٣ ، وفي السنة نفسها عين موظفاً في تربية البصرة . وفي عام ١٩٤١ تزوج من السيدة (فاطمة احمد جمال الدين) حيث كان لها الاثر البارز والكبير في حياة الطاهر المستقبلية اذ انها وظفت امكانياتها وثقافتها – وهي سليلة عائلة اشتهرت بالعلم والثقافة – في خدمة زوجها ونجحت في شحذ جانب العلم والمعرفة في حياته واغلاق منافذ التفكير في الظروف الصعبة التي كانت تعيشها عائلة الطاهر ممع جعله لا يفكر الا في الكيفية التي يرتقي بها من خلال سلم العلم والمعرفة .

وفي عام ١٩٤٢ انتقلت العائلة الى مدينة بغداد فدخل دار المعلمين العالي ليتخرج منها بعد اربعة اعوام ، وعين مدرساً على الملاك الثانوي في عام ١٩٤٦ وبعد سبعة اشهر فقط قدم استقالته ليتسنى له الالتحاق بالبعثة العلمية العراقية المتوجهة الى فرنسا ، حيث دخل جامعة السوربون لدراسة علم الاجتماع في معهد الدراسات الدولية العليا ، وقد تحددت شخصيته ونمت لديه التوجهات المستقبلية بعد تعرفه على رواد المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع مثل (جورفتش ، جان بيريك) وغيرهما وتاثر بهم الى حد كبير . ولكن الذي حدث لم يكن متوقعاً له

حيث قررت الحكومة العراقية عام ١٩٤٨ نقل بعثاتها العلمية المتواجدة في فرنسا الى الولايات المتحدة تحت حجة انتشار الافكار الاشتراكية الشيوعية فيها ، والتي لا تلائم الطلبة العراقيين وحجز له مقعداً في جامعة شيكاغو عام ١٩٤٨ . فباشر في دراسة الماجستير التي اتمها عام ١٩٥٠ ، ثم بدأ في العام نفسه بدراسة الدكتوراه وكان عنوان اطروحته (الجاليات العربية في الولايات المتحدة) فأكملها وحصل على درجة الدكتوراه (Ph.D) عام ١٩٥٢ .

وقد عاد الى العراق عام ١٩٥٢ وعين مدرساً في كلية الاداب والعلوم / جامعة بغداد لتدريس مواد علم الاجتماع . رقي الى مرتبة استاذ مساعد عام ١٩٥٥ وفي العام نفسه اصبح رئيس قسم الاجتماع وكالة ثم استمر في عمله مثابراً مجتهداً اذ كانت هذه الفترة وحتى عام ١٩٦٣ من أخصب فترات عمره الاكاديمي والبحثي واغزرها انتاجاً على الرغم من ايقافه عن العمل ثلاث مرات ، الاولى عام ١٩٥٦ ، والثانية عام ١٩٥٩ ، والثالثة ١٩٦٣ انتقل بعد ذلك الى الجامعات السعودية ثم تركها الى ليبيا عام ١٩٦٤ ، حتى عام ١٩٦٨ حيث عاد الى العراق ومارس نشاطه في التدريس حتى وفاته عام ١٩٧١ .

قدم الدكتور عبد الجليل الطاهر مجموعة كبيرة من المؤلفات التي جاءت اما عن طريق دراسات ميدانية قام بها للمجتمع العراقي والعربي او عن طريق نقل المعرفة السوسيولوجية من البلدان الاوربية والامريكية التي ظهرت فيها ورفد المكتبة العربية بهذه المؤلفات . ومن مؤلفاته المطبوعة : (المشكلات الاجتماعية في حضارة متبدلة) عام ١٩٥٣ و (التفسير الاجتماعي للجريمة) عام ١٩٥٦ و (أصول فلسفة الطبقة الوسطى) عام ١٩٦٠ و (مسيرة المجتمع) عام ١٩٦٦ . وله كتب مترجمة كثيرة عن السكان والاقتصاد والتجريبية والمزارع التعاونية ، اهمها (المجتمع البدوي العربي) و (طرق تنمية الريف العراقي) و (المجتمع المدني في العراق) و (الشخصية العراقية) و (العشائر والسياسة) ، ترجمة (مطبعة الزهراء ، بغداد ١٩٥٨) و (المزارع التعاونية الجماعية) ترجمة (مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٠) [1] .

كتابه (مسيرة المجتمع)

بحث في نظرية التقدم الاجتماعي

المقدمـــة :

ذكر عبد الجليل الطاهر في مقدمة كتابه مسيرة المجتمع تدور في خلد الانسان ، اليوم ، اسئلة عديدة ، اكثر من أي زمان مضى حول مصير الحضارة الانسانية ، اثارت فيه حباً عميقاً لمعرفة ما يحيط بمستقبل حضارته من اسرار ، حفزته على البحث عن اجوبة لها ، فلم يجد في تراثه الفكري ما يشفي غليله ، ليستشف به عما وراء الآفاق الواسعة المجهولة . فلجا الانسان مضطراً الى وضع الفروض والنظريات القلقة التي لم يفد منها شيئاً كثيراً في حل طلاسم الحياة الغامضة ، فبذل المزيد من الجهود ، عله ينفذ ببصيرته الى ما وراء جدران المستقبل التي غطت في ظلامها الدامس الدرب الطويل الذي سلكته الحضارة في مسيرتها [٢] .

ان من حق كل انسان ان يسال ، وان يبحث عن مصير الحضارة في وضع دولي متازم ، يهدد بين لحظة واخرى باندلاع حرب نووية ، لم ترى الانسانية لها مثيلاً من قبل لا تبقي من التراث الحضاري ولا تذر . فادخلت النكبة السوداء في العالم ، لا قدر الله كما يقول المؤرخ البريطاني (توبيني) فان مصير العالم سيكون في ايدي سكان التبت والاسكيمو بسبب حصانة الموقع الجغرافية التي تسكنها تلك الشعوب ، والتي تحميها من الدمار ، اذ ان الامل الوحيد في انقاذ ما تبقى من حطام التراث الحضاري . الذي طوره الانسان منذ اكثر من ستة الآف سنة ، سيكون بايدي الاقزام الزنوج في اواسط افريقيا لان مفهومه المجرد عن طبيعة الله وعلاقة الله بالانسان بداية جديدة للانسانية [٣] .

كان معظم الفلاسفة اليونان من دعاة البدائية الحضارية اعتقدوا بان هبوط الانسان من العصر الذهبي البطولي ، وسقوطه من عالم مليء بالشقاء والبؤس اضطرهم الى الاعتقاد بالماضي ، صورة مثلى كاملة للحياة التي يجب ان يعيشها الانسان ، فاتخذوا منه هدفاً يتغنون بامجاده ، ورسموا المدن الفاضلة على الذكريات الراسية في التراث الحضاري . واكدوا بان الناس

في العصور الاولى كانوا احسن حالاً واقرب الى الآلهة .وفسروا انحطاط دويلات المدن اليونانية بالاغراق في متارف المدينة ومباذخها . فارتبط معنى الانحطاط بالمدينة والترف والكماليات واستمر هذا المفهوم المتشائم عن المدنية طوال العصور الوسطى . واتخذ ابن خلدون من الترف معياراً للانحلال والانقراض ، فكلما كان الغلو شديداً في الترف ، والبذخ كان فناء الدولة اكيداً وسريعاً [٤] .

ان المسيرة على الخط العام للانتقال من مرحلة حضارية الى مرحلة اخرى ليست اوتوماتيكية تلقائية ، ولكنها تعتمد على مقدار ما يبذل الانسان من جهود ، وما يحققه من استجابات ناجحة لتحديات الطبيعة ومشكلات المجتمع ، وعلى مدى النشاط الذي يبذله لازاله العراقيل التي تقف في طريق مسيرته ، فالتقدم عملية اعداد بطيء ، ولو انه يظهر في بعض الاحيان على شكل قفزات ، فقد اصبح التراث الاجتماعي اكثر تقدماً وكمالاً ، وأكثر خصباً ، وروعة في العلوم والصناعة والاختراع والفنون والثقافة والفلسفة والتكنولوجي . وبعد ان طور علم الحياة في القرن التاسع عشر نظرية التطور مؤكدة وجود حيوانات سفلى وحيوانات عليا . فوصل الكتّاب الاوربين الى تقسيم المراحل الحضارية الى (الوحشية) و (البربرية) و (المدنية) . وصار علماء الاجتماع والانثربولوجيا يفكرون في اطار تعاقبي لمسيرة الحضارة البشرية ويضعون بعض المعايير للحكم على مدى تطور كل مجتمع [٥] .

اهتم فلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اهتماماً كبيراً بالكشف عن القوانين التي تسيطر على الخط العام الذي يتبعه المجتمع في حركته وتغيره واندفاعه ، وعن القوى التي تدفعه ، وعن الاهداف التي يحث المجتمع خطاه لتحقيقها . وقد ظن علماء الاجتماع بان علم الاجتماع – هو العلم الذي يصنع المعجزات ، ويخلق القفزات ، ويحقق الاحلام الذهبية التي داعبت اخيلة الفلاسفة ، ويخرج الى حيز وجود المدن الطوبائية التي رسمتها اقلام المصلحين ، وعلى عاتقه تقع مسؤولية تعيين اهداف المجتمع ، وتحدد خط مسيرته ، والكشف عن قوانين المجتمع [٦] .

منهج البحث التاريخي ومنهج البحث الاجتماعي :

واكد في المقارنة بين منهج البحث التاريخي والاجتماعي بمحاولة عدد من علماء الاجتماع من جهة ، ومن المؤرخين من جهة اخرى ، الفصل بين علم الاجتماع والتاريخ ، ورسم حدود تعزل بينهما عزلاً تاماً ، بدعوى ان الاعتقاد بالمصير التاريخي مجرد خرافة ، وانه لا يمكن الاحاطة بمجرى التاريخ الانساني ، ولا يمكن ان تقوم نظرية علمية في التطور التاريخي ، تصلح لان تكون اساساً للتنبؤ التاريخي ، وان المنهج التاريخي يعاني من نقص متاصل فيه ، ولا سبيل الى تقويم اعوجاجه [٧] .

بينما يتمسك آخرون بالقول بان عوامل جدت في المعرفة الانسانية أدت الى التلاحم والترابط الوثيقين بين التاريخ وعلم الاجتماع : كاتساع الاطار التاريخي ، الذي شمل أوجه الحياة كلها ، ولم يقف عند حدود الماضي فقط ، بل تجاوزه الى الحاضر ، وهو يتطلع الى المستقبل، ويحاول الكشف عن (القوانين) او (الاتجاهات) او (الانماط) او (الاضطرابات) او (التناسقات) التي يسير بموجبها المجتمع [٨] .

وتحول منهج البحث في التاريخ من القصص التاريخية الادبية الى التحقيق العلمي ، وانتقل مركز الثقل في تفسير الاحداث ، وسير التاريخ الانساني من العوامل الغيبية الى العوامل المنبثقة من الحياة الواقعية . ويؤيد اصحاب هذا الرأي ضرورة الافادة من الاضافات التي يحققها كل منهما ، لان الظواهر الاجتماعية تحدث في اطار تاريخي يحدها عاملان الزمان والمكان ، وبهذا لا يمكن باي حال من الاحوال الفصل بين التاريخ وعلم الاجتماع [٩] .

حيث يدرس علم الاجتماع والتاريخ القوى المؤثرة في مسيرة الحضارة والمجتمع . وكلاهما يعرفان او يحاولان ان يعرفا التغيرات التي تحدث في بناء المجتمع واسبابها ، ودوافعها ، واتجاهاتها ، واهدافها ، حتى يعد الناس انفسهم لمواجهة التغيرات الجديدة [١٠] .

وقد أوضح (اوكست كونت) ان موضوع علم الاجتماع يتالف من حقائق التاثير المستمر التدريجي للاجيال البشرية بعضها في بعض . فمن المستحيل ان نكتفي بالاعتماد على قدراتنا

في الاستنباط للكشف عن القوانين الاساسية لتطور معقد ، مركب ، دون اللجوء الى التحليل التاريخي ، لان المقارنة التاريخية للمحاولات المتعاقبة للبشرية لا تصبح البناء الاساسي والعلمي لعلم الاجتماع ، ولكن القاعدة والجوهر للعلم نفسه . فان كان علم الاجتماع يتظاهر بتجاوز التاريخ فانه لا يصبح علم الاجتماع [١١] .

وأعلن (أميل دور كهايم) في سنة ١٩٠٩ بكل وضوح أهمية منهج البحث القائم على (المقارنة التاريخية) واعتبرها الادارة الوحيدة التي يتوصل بها العالم الاجتماعي في البحث عن كيفية تركيب وبناء المؤسسات ، وما هي الاسباب التي أدت الى ظهورها . يرينا التاريخ ان تلك المؤسسات قد تكونت وظهرت للوجود ، بصورة تطورية ، تدريجية وتقدمية : حيث تجمع ، وتراكم جزء على جزء ، فالطريقة التاريخية تلقي ضوءاً على تراكم تلك الاجزاء وتجمعها ومسيرتها ، وترابطها ، والخط الذي اتبعته ، واصولها ، وجذورها والاحاطة بها . وبهذا المعنى يكون علم الاجتماع حقلاً كبيراً ، بل نوعاً من التاريخ المسموع ، وان الروابط التي تشده بالتاريخ وثيقة وصميمة [١٢] .

لقد أصبحت العلوم الانسانية وحدة متماسكة الاطراف ، فان ما يحدث في بعضها من اضافات جديدة تفيد منها بقية الاطراف ، والنظريات التي يقدمها علم الاجتماع حول الحضارة، والتغير الحضاري والخط العام لمسيرة المجتمعات البشرية ، تعطي للمؤرخ مواد انسانية خصبة كما ان تاريخ الانسان وحضارته التي بدون شك تنير السبل امام علم الاجتماع مثل دراسة (شبينجلر) و (توينبي) و (سوروكن) وغيرهم . ومن هذا التعاون المستمر نستطيع ان نسمو بالمعرفة الانسانية، وان ننهض بالتراث الحضاري ، وبذلك نحقق الوحدة الاكاديمية في مجال المعرفة [١٣] .

وهكذا استرعت مشكلة الخط العام لمسيرة المجتمعات البشرية اهتمام المؤرخين والفلاسفة وعلماء الاجتماع فقد ساد الاعتقاد بين علماء الاجتماع بان الانسانية سائرة الى الامام باتجاه تقدمي ، وتتجلى مهمة المؤرخ في وصف ما حدث ، والتعرف على الوقائع والاحداث وتحليل الروابط بين تلك الوقائع والكشف عن أسباب حدوثها والطريقة التي حدثت فيها [١٤] .

الخط العام لمسيرة التجمعات البشرية :

واستعرض الدكتور عبد الجليل الطاهر في كتابه طبيعة الخط العام لمسيرة المجتمعات البشرية ، منذ العصور القديمة حتى العصور الحديثة ، ويمكن ايجازها بما ياتي :

(١) العصور القديمة :

ففي العصور القديمة فان الفلاسفة اليونان لم يدركوا ادراكاً شاملاً معنى الزمان ، فانهم آمنوا بالقدرية ، وبالحركة الدائرية للمجتمع ، وكان التشاؤم مخيماً على تفكيرهم ، تغنوا بامجاد الماضي ، ووقفوا ضد كل تغير وحركة . ونظر اللاهوت المسيحي الى المسيرة البشرية مخططة من قبل العناية الالهية .وان الفلاسفة اليونان لم يدركوا فكرة (التغيير) و (التقدم) والخط العام لمسيرة المجتمعات ، ولعل السبب في ذلك كما يرى (شبنجلر) يرجع الى عدم ادراكهم الشامل لمعنى الزمان ، وآمن الفلاسفة اليونان بالقضاء والقدر ، ولم يهتموا باثر القوى الاجتماعية او الارادة البشرية في حركة التغير والتقدم ، وفسروا التاريخ على هيئة دوائر ، يتكرر حدوثها بدون انقطاع ، يرتفع وينخفض فيها بحيث تعود نفس طرز المعيشة ، ويقوم المجتمع بنفس الاعمال لانهم أدركوا مفهوم الدائرة أكثر الاشكال كمالاً ، والحركة الدائرية هي أكمل الحركات لانها الحركة الوحيدة التي تحاكي ازلية الكائن ، ولانها تميزت بها الافلاك منذ الازل ، والتي ليس لها نهاية . وتتصل الحركة الدائرية بفكرة الولادة والبعث [١٥] .

وكان التشاؤم مخيماً على تفكيرهم ، عندما كانت الحروب قائمة بين دويلات المدن ، حيث لم يستطع الفكر اليوناني ان يتجاوز حدود دويلات المدن الصغيرة ، فاتخذ منها نماذج لبناء مجتمعات مثالية ، لذا لم تبحث الفلسفة اليونانية في فكرة (التقدم) بسبب خبرة الفلاسفة التاريخية القصيرة ، والسرعة الهائلة التي حققت بها الحضارة اليونانية الانتصارات العظيمة من مختلف حقول المعرفة ، ثم انحلال الحضارة وانهيارها ، وجهلهم بتاريخ حضارات الامم التي سبقتهم او عاصرتهم ليتمكنوا من الوصول الى نظرة شاملة مقارنة [١٦] .

ونظر الفلاسفة اليونان الى الماضي واعتبروه الشكل الامثل للحياة واتخذوا من الماضي هدفاً أعلى يتغنون بامجاده ، ويتفاخرون بايامه الذهبية حيث رأى (افلاطون) في الاستقرار المتكامل ، الذي يحافظ على الانسجام والتناسق في المدينة هدفاً أعلى ، فجعل المدينة ثابة ، مستقرة ، خوفاً من تعرضها للتغير والهزات الاجتماعية والحروب الاهلية . وفي هذا الاطار الضيق والمجال العقلي المحدود خطط مدينته الفاضلة . فدعى الى وضع التحديدات الصارمة ضد زيادة النسل ، واراد ان يتخلص من الاضطرابات الاقتصادية ، فقسم المجتمع الى اصحاب الاصناف والمهن والحروف تقسيماً وراثياً مغلقاً وارجع سبب القلق الاجتماعي الى الروح المبدعة ، الخالقة ، الروح الشعرية . وقال بضرورة طرد الشعراء من جمهوريته بعد ان يتوجوا باكاليل الغار . وكان يرى في بناء جمهوريته بناءاً عقلياً راكداً وساكناً ، بكل ما فيها من مساحة وسكان ، وتوزع الى طوائف ، ومهن ، وانتاج واسعار ، كلها محدودة مرة واحدة والى الأبد [١٧] .

وربط افلاطون بين التغير والفوضى ، وانتقد بشدة قلق المدن الكبيرة التجارية مثل (أثينا) و (كورنيث) وتاثر جداً من كثرة الاضطرابات والقلاقل والفتن في (اثينا) فاعتبر (سبارطة) نموذجاً مثالياً للاستقرار ، واقترح تجميد كل حركة في الانظمة السياسية والاقتصادية والعقلية ، وفضل الرجوع الى البناء التقليدي للمدينة الفاضلة (اليونانية القديمة الابتدائية) . وارجع افلاطون كل تلك الاضطرابات الى الزيادة السكانية والتغيرات التي تحدث في تركيب السكان ، واتباع السياسة التوسعية ذات المظهر بين الاساسيين وهما السيطرة على الاسواق والتهجير اللذان يؤلفان القاعدة الكولونيالية [١٨] .

(٢) العصور الوسطى :

اما في العصور الوسطى فقد سيطرت الكنيسة على الفكر الاجتماعي ، وأصبح الاطار اللاهوتي النطاق الضيق لحركة الفكر ، فكان مركز الوجود كله يدور حول الخلاص من الخطيئة الاصلية . فنظر الفلاسفة الى بناء المجتمع باعتباره خلقاً سماوياً ، لا تستطيع قوة بشرية ان تحدث فيه تغييراً وان تتدخل في توجيهه ، فالسماء هي التي خلقت الانظمة السياسية

والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فهي انظمة ازلية خالدة ، لا يمكن ان تتبدل بعمل الانسان وستبقى الى أبد الابدين ، وبذلك كانت نظرتهم سكونية جامدة فالفقر والغنى ، والطبقات الاجتماعية ، والنبلاء ، والاقنان كلها من خلق السماء ، وعلى الانسان ان يتقبل كل الاشكال لانها النصيب او الخط الذي ارتضته السماء للبشرية ، وهي اعراف بالعباد من العباد انفسهم بما ينفعهم ويضرهم ولهذا انصرف الناس للعمل المتواصل من اجل الخلاص [١٩] .

وخير من يمثل التفسير اللاهوتي المسيحي للتاريخ هو (القديس اوغسطين) (٣٥٤ – ٤٣٠) في كتابه الشهير (مدينة الله) . بدأ التاريخ قبل المسيح بسقوط (آدم) واليه يمكن ارجاع كل الخطيئة الاصلية للبشرية . ومن آدم الى المسيح كان التاريخ اعداداً وتحضيراً لخلاص الانسان وانقاذه بواسطة المسيح (آدم الثاني) . وقد قسم القديس اوغسطين هذا الاعداد والتحضير الى خمس مراحل او عصور هي من آدم الى فيضان نوح ، ومن الفيضان الى ميلاد المسيح . وهكذا فسر مسيرة التاريخ بانها مخططة من قبل العناية الالهية ، وكتبته في لوح محفوظ [٢٠] .

اما وجهة النظر الاسلامية التي برزت في العصور الوسطى ، فان عدد من الفلاسفة المسلمين بحثوا في (المدينة الفاضلة) التي يسعى الى تحقيقها المجتمع الانساني ، وكان (ابو نصر الفارابي) (٢٥٩ هـ – ٣٣٩ هـ) في كتابه (اراء أهل المدينة الفاضلة) حاول ان يوضح الأسس التي يجب ان يشيد عليها المجتمع الفاضل ، وخصائص النفس البشرية ، فيقول (لا يستطيع الانسان ان يبقى وان يبلغ افضل كمالاته الا في المجتمع ، والمجتمعات البشرية منها ما هو كامل ومنها ما هو غير كامل ، والكامل منها ثلاثة : العظمى (المعمورة) و الوسطى (الامة) والصغرى (المدينة) وغير الكاملة هي القرية والمحلة والسكة والمنزل) . ودعا الفارابي الانسان الى ان يعمل لتحسين نفسه اولاً ، وتحسين الاخرين في المدينة ثانياً [٢١] .

(٣) عصر أحياء العلوم (الرنيسانس) :

لقد فتحت عصر احياء العلوم ، وحركة الاستكشافات الجغرافية آفاقاً جديدة وواسعة امام الفكر الانساني ، وتجمع الثروات وتراكمها ، حيث انتقل مركز الثقل في التفكير من الأمل

في الخلاص من الخطيئة الاصلية الى امكانية تحقيق التقدم والسعادة في الحياة ، ويرجع الفضل في ذلك الى الفيلسوف (فرنسيس بيكون ١٥٦١ – ١٦٢٦) الذي انتقد ارتباط الناس بالماضي وانجذابهم بسحره ، أكثر من تقدم العلوم وازدهار الفلسفة . كما رفض الفيلسوف الفرنسي (ديكارت ١٥٩٦ – ١٦٥٠) كل سلطة تحاول ان تفرض على الفكر فرضاً ، ولم يذعن لقضايا الماضي واوهامه ، ولم يقنع بما كتب ، ولا بما عند العلماء . واعتبر ديكارت طلب الحكمة هو النداء الصحيح للعقل الذي هو أهم جزء في الانسان ، فكلما ازداد نصيبنا من الحكمة زاد اقترابنا من الله الذي هو احكم العلماء [٢٢] .

(٤) عصر النهضة (عصر النور) :

كان فلاسفة عصر النور يبشرون بان المجتمع الفرنسي مقدم على عهد رخاء وسعادة ، تتحقق فيه الحرية والاخاء والمساواة ، وينطلق الفكر من القيود والانحلال التي تسيطر عليه ، فكانت فكرة المسيرة التقدمية للمجتمع البشري سلاحاً ماضياً بايدي الطبقة البورجوازية الصاعدة في حربها ضد الكنيسة والاقطاع . وآمن فلاسفة عصر النور بكمال العقل البشري وبمستقبل افضل للبشر وباحترام العقل . ومن أشهر أولئك الفلاسفة (ديدرو) و (مونتسكيو) و (روسو) و (فولتير) . وغيرهم من الفلاسفة الذين اطلق عليهم اسم (المدرسة الانسكلوبيدية) الفرنسية . وهي مدرسة التفائل وقد اتهمها البعض بالعاطفية ، والابتعاد عن المنطق الهادئ ، وسموها بالفلسفة الوردية للهظم الجيد والشبع والانجاز الشخصي [٢٣] .

التقدم على خط المسيرة العام :

وفي كتابه تناول طبيعة التقدم على خط المسيرة العام بانها عملية تراكمية ، وان ما لدينا من تراث اجتماعي حضاري هو اكثر تراكماً مما كان عليه الماضي ، فليس الماضي أفضل من الحاضر ولا الحاضر أفضل من المستقبل وكان علم الاجتماع يكشف عن القوانين والاهداف والاتجاهات لمسيرة المجتمعات البشرية بالرجوع الى (فلسفة التاريخ) حيث اعطاها الفلاسفة معنى جديداً لفلسفة التاريخ ، فقد وضعوها بالكشف عن القوانين العامة التي تتحكم في مجرى

التاريخ وسير الاحداث والوقائع ، وكان هدفهم ان يجعلوا من التاريخ علماً تجريبياً يكشف عن القوانين الموحدة . وقسمت فلسفة التاريخ الى قسمين : القسم النقدي والقدم الميتافيزقي (التاملي) ، فالفلسفة النقدية للتاريخ تشبه فلسفة العلوم ، لانها تبحث في التاريخ وتفسر اعمال البشر لماضيه ، وتتوخى الوصول الى الحقيقة التاريخية ، والتفسير التاريخي ، اما الفلسفة الميتافيزيقية (التاملية) فتحاول معرفة معنى وهدف التاريخ [٢٤] .

اما اعتبار التقدم فلسفة متفائلة ، فان ما قدمه الفيلسوف الفرنسي (كندرسيه ١٧٤٣ – ١٧٩٤) لتفسير المجتمعات البشرية على خط صاعد الى الاعلى يعد في طليعة الاضافات العلمية في القرن الثامن عشر ، حيث عرض نظريته في كتابه (لوحة تاريخية لتقدم العقل البشري) الصادر سنة ١٧٩٤ . فقد نظر الى مسيرة المجتمعات البشرية باعتبارها عقلية أي تطور العقل البشري . وكان مؤمناً بان العقل هو الذي يتحكم في تلك المسيرة . ونظر الى تاريخ البشرية في مسيرة تقدمية تمر بمراحل متعاقبة لتطور المعرفة ، فتقترب شيئاً فشيئاً نحو الهدف النهائي للمجتمع ، وتحقيق المساواة المطلقة في الحقوق – حقوق الافراد والأمم . وكان (كندرسيه) أول من اعلن بان هدف التاريخ هو الكشف عن تلك القوانين الخاصة بالتقدم الاجتماعي [٢٥] .

وتتبع كندرسيه المراحل التي قطعها الخط العام في مسيرته التقدمية فوجد انها تمر بعدد من المراحل : المرحلة الاولى هي مرحلة اجتماع الناس على شكل اقوام أي مجتمع الاسرة والحاجة الى دين ثم ظهور سلطة عامة . وظهرت في هذه المرحلة الافكار الاولى للخرافات والاساطير والسحر ، وعاش الانسان على الصيد والقنص والتقاط الطعام . وفيها بداية تدجين الحيوانات والحياة الاجتماعية .

والمرحلة الثانية : مرحلة الاقوام الرعوية وانتقالها الى بدايات الزراعة وتدجين الحيوانات والعمل على تكاثرها ، والافادة من منتجاتها . وتكوين القطعان واستقرار الحياة . وقد أدت اوقات الفراغ الى تطور العقل واللغة والزراعة في الوديان الخصبة [٢٦] .

اما المرحلة الثالثة :فهي المرحلة التي تقدمت بها الشعوب الزراعية واختراع الحروف الابجدية وربطت الزراعة والانسان بالارض ، وبدأ تقسيم العمل وظهرت الطبقات الاجتماعية . اصحاب الاراضي ، والعبيد والتجار والعمال . وتحسنت حالة المرأة وظهر حكم الطغاة ، شعوب

حاكمة ، وشعوب محكومة ، وظهور طبقتين جديدتين هما نبلاء الاراضي والاقنان [٢٧] . وخصص المرحلة الرابعة بتقدم العقل البشري من اليونان حتى عصر تقسيم العلوم وعصر الاسكندر الكبير ، ووصول الحضارة اليونانية الى الشرق وظهور جمهورية افلاطون وكتاب السياسيات لارسطو والمدارس الفلسفية اليونانية ، وشملت المرحلة الخامسة تقدم العلوم وتطبيق (ارسطو) الطريقة الفلسفية على العلوم والشعر والخطابة واستعمال الملاحظات والتجربة في دراسة العلوم . وتناول في المرحلة السادسة اضمحلال النور حتى عودته الى الاشعاع في غضون الحروب الصليبية ، حيث حصرت اوربا بين الطغاة الدينين والعسكريين . اما المرحلة السابعة فقد ذكر فيها تقدم العلوم حتى اختراع الطباعة ، وشملت المرحلة الثامنة من اختراع الطباعة حتى حركة تجريد الناس من القيود السياسية والدينية وسقوط القسطنطينية واكتشاف العالم الجديد وظهور الاصلاح الديني ، اما المرحلة التاسعة – فكانت من ديكارت الى تكوين الجمهورية الفرنسية وكانت المرحلة العاشرة فتقوم على ثلاث دعائم هي القضاء على التفاوت بين الأمم واحلال المساواة بين افراد الامة الواحدة والكمال الواقعي للانسان [٢٨] .

وضح عبد الجليل الطاهر في كتابه كيف كان من سوء حظ علم الاجتماع انه لم يستطع الاجابة عن السؤال الاكبر (الى اين يسير المجتمع) الى بالرجوع الى فلسفة التاريخ ، لهذا حاول بعض الفلاسفة من أمثال (كنط) و (فختة) و (هيردر) و (هيجل) ان يكشفوا عن مصير المجتمع ، وعن القوانين التي تهيمن على الخط العام للمسيرة . وهل هي خطة الهية لا يستطيع العقل البشري الكشف عنها وعن اهدافها ، ام ان تلك الخطة من صنع البشر ، يرسمها ويخططها الانسان ويضع اهدافها ؟ وقد توصل (كنط) الى القول بانه اذا حدث تقدم عام في حياة الانسانية فانه لم يكن نتاجاً لخطة وضعها الانسان وانما هي خطة للطبيعة ينفذها الانسان دون ان يعرف جوهرها وفضل المجتمع الساكن غير التاريخي لانه أسعد المجتمعات ليعيش اهله بسلام . وينطلق (فختة) من الحاضر في خط المسيرة التاريخية . وجعل المفهوم الاساسي هو الحرية العقلية ، وتنبأ باختفاء الحروب المنافسة بين الأمم ، وحصر واجب الدولة بالحضارة

والترف ، ويختفي في الدولة الجديدة كل أثر للفقر والبطالة لانها دولة عقلية . ويرى (هيردر) الاحداث والوقائع تتعقب مجرى تسيره قوانين كما هو الحال في الظواهر الطبيعية ، ونظر (هيجل) الى مسيرة التاريخ وكانها تقدم جدلي ، يرمز الى الثورة واعادة البناء [٢٩] .

ووضح ما قدمته الفلسفة الوضعية من اضافات لدراسة التقدم فبعد سقوط انظمة العصور الوسطى نتيجة للثورات عاش المجتمع الاوربي في حالة من القلق والاضطراب . فكان (سان سيمون) أول من قال بان العصور الوسطى مرحلة ذات تنظيم روحي واجتماعي اعقبته مرحلة انحلال . واتخذ من قوله (كل شيء بواسطة الصناعة وكل شيء للصناعة) شعاراً جديداً للمرحلة الجديدة . واليه يرجع الفضل في صياغة قانون المراحل الثلاث . وأكد بان العصر الذهبي ليس ورائنا وانما أمامنا ، فهو كمال النظام الاجتماعي . ثم جاء بعده (اوكست كونت) الذي شجب الجدلية والفلسفة السلبية واعتبرهما مصدراً للقلق واثارة الفتن ، ورأي في طفرات الثوري اعظم عقبة تقف في مسيرة المجتمع التقدمية . واتخذ من قانون المراحل الثلاث قانوناً عاماً لتطور المجتمعات البشرية . ورجح النظام على التقدم واعتبر التقدم نظاماً متحركاً [٣٠] .

وقارن عبد الجليل الطاهر في كتابه بين مفهوم التطور والتقدم . الاول في المجال البيولوجي والثاني في المجال الاجتماعي – النفسي والعقلي والخلقي – فالتطور يعني المسيرة من شكل واطن الى شكل اعلى ، ويعني التقدم نمو العقل وسيطرته على التطور الواعي المقصود المخطط للبشرية ، ويتصل بالفلسفة المتفائلة التي تتوخى تحقيق المجتمع الأمثل . وقد ناقش فيه بالتفصيل اختلاف وجهات النظر للفلاسفة الأوربيين حول ذلك . ثم وازن بين التفائل والتشاؤم فيما كتبه عن الخط العام لمسيرة المجتمع عند كل (سوروكن) و (شبنجلر) و(توينبي) الذين يغلب عليهم الطابع المتشائم لمصير المجتمع والحضارة [٣١] .

وتعرض في كتابه أيضاً الى ثلاثة اطر فكرية مجردة لدراسة المسيرة على الخط العام لتقدم المجتمعات البشرية ، من الاشكال البسيطة البدائية الى الاشكال المعقدة المركبة ، ومن اليوتوبيات الى الأيدلوجيات ، في كل من (أميل دوركهايم) من التضامن الميكانيكي الى التضامن

العضوي و (فرديناند تونيز) من الجماعة الى المجتمع و (كارل مانهايم) من اليوتوبيا الى الايديولوجي . ويدعو (دوركهايم) الانتقال من التضامن الميكانيكي الى العضوي انتقالاً تقدميا وهو قانون تاريخي وحتمي . لان ظهور وتطور وتقدم التضامن العضوي يقوم على تلاشي وزوال التضامن الاول من الوجود ، فالاول يتقهقر والثاني يتقدم بفضل تقسيم العمل . وتسلك المسيرة التقدمية للمجتمعات البشرية في تطورها التاريخي ثلاثة طرق هي : التركيز بعد البعثرة والانتشار ، وزيادة الكثافة الخلقية نتيجة لازدحام السكان وزيادة وسائل النقل ، وزوال الفواصل والابعاد . وأكد (فرديناند) على العوامل النفسية الارادية في التمييز بين المجتمع الى الارادة العقلية . ونظر (كارل مانهايم) الى مسيرة المجتمعات تعاقباً بين اليوتوبيا والايديولوجي [٢٢] .

وأوجز عبد الجليل الطاهر الخطوط العريضة للتفسير المادي لمسيرة التاريخ الذي أرجع حركة المجتمع وتقدمه الى القوى المنتجة والعلاقات التي تقوم عليها ، فهي القانون الموضوعي الذي يعبر عن مصالح الجماهير فتغير طرائق الانتاج هي المفتاح لتاريخ المجتمعات . كما ان العلاقات البرجوازية هي آخر شكل تناقضي لعملية الانتاج ، وهو الفصل النهائي والأخير من مراحل تطور الانسانية . وترجع النظرية المادية سبب التشويه في المجتمع البرجوازي الى الملكية الفردية الخاصة لوسائل الانتاج . وتؤكد بوجود أربع مراحل للمسيرة التاريخية هي : الكومونة البدائية والاقطاع والرأسمالية والاشتراكية ، وتجعل الطبقة العاملة الثورية هي القوة الفعالة التي تحقق الهدف الأخير . فالناس هم الذين يصنعون التاريخ بجهودهم الجماعية [٢٣] .

وتحدث عن (الحتمية التكنولوجية وأثرها في مسيرة المجتمعات البشرية) والتي اكد فيها بان افكار الانسان وآراءه تعتمد على عمله ، وعمله بدوره يعتمد على ما لديه من تكنيك وآلات ، وطالب بضرورة سيطرت الدول ذات الامكانيات التكنولوجية الهائلة على مصير الشعوب [٢٤] .

وتحدث أيضاً عن عاملين مهمين من الوجهة التاريخية في التعرف على خصائص الخط العام للمسيرة بالرغم من اننا نعتبرهما في الوقت الحاضر ثابتين نسبياً وهما : العامل الجغرافي والعامل الرسي (العرقي) ، وناقش (النظرية الجيوبولتيكية) التي أمتزجت بالقومية

الجغرافية الشوفينية والاطماع الاستعمارية من قبل بعض الدول الكبرى ، للاستيلاء على المناطق الغنية في العالم والاستحواذ على الاسواق ، وارتبطت كذلك بالنظرية الرسية (العرقية) التي دعا لها (هتلر) و موسوليني) و (العسكرية اليابانية)[٣٥] .

وناقش عبد الجليل الطاهر افكار مجموعة من الفلاسفة الاراديين اللاعقلين المتشائمين أمثال (نيتشه) و (برجسون) و (شو بنهور) الذين أخذوا اطار الارادة اللاعاقلة المتشائمة لدراسة حركة المجتمع وانكروا وجود قوانين موضوعية في الطبيعة والمجتمع . وأكدوا ان الارادة أرجح من العقل وظهر من هذا التيار الفلسفي اتجاهان عاطفيان : الأول يمجد الأمة ، والثاني يمجد الابطال والعباقرة والقديسين . فاعتبر (نيتشه) الارادة هي الحياة ، وليس الارادة الا ارادة القوة . وانتقد (برجسون) الفلسفة الحتمية ، ودعى الى الحرية . وأكد بان القوة التي تسير المجتمع هي (الحدس) و (الغريزة) وان البشرية لا تتقدم نحو الكمال ولا يوجد هدف لمسيرة المجتمع[٣٦] .

واستعرض أثر البطل في خط مسيرة المجتمع من خلال ابراز وجهة نظر علماء الاجتماع الماديون والمثاليون حول تقيم دور البطل في رسم الخط العام لمسيرة المجتمع ، وقيادة الجماهير . فالعلماء المثاليون يربطون مصير المجتمع بحياة رجل واحد وينقلون تفسير الظواهر الاجتماعية الواقعية الى الاطار الفردي النفسي لشخص واحد ، هو البطل الاله ، او البطل نصف الاله ، ويحاولوا ان يدونوا الوقائع والاحداث التاريخية سيراً لحياة الامراء والقادة العسكريين والعباقرة ، حيث انكروا القوانين الموضوعية ، والدور الخالق لمبدع الشعوب . اما علماء الاجتماع الماديون فنظروا الى البطولة او الزعامة من خلال مسيرة ، وتغير ، وتقدم القوى المنتجة في المجتمع ، اذ تعمل البطولة على ازالة العراقيل والعقبات التي تقف في طريق تطور تلك القوى المنتجة ، وتجعل العلاقات والروابط الانتاجية تنسجم مع القوى المنتجة في فترة تاريخية معينة فيتجلى عمله البطولي في تنشيط القوى المنتجة للاسراع في تغير الانظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقانونية لتواكب القوى المنتجة وتزيل العقبات التي تحدث[٣٧] .

وأختتم عبد الجليل الطاهر كتابه مسيرة المجتمع في تلخيص النتائج المتعلقة بمفهوم التقدم والخط العام لمسيرة المجتمع ، والخصائص العامة للتقدم ، ومميزات الخط العام وأهم العوامل التي تؤثر في الخط العام ، والمعايير المقترحة لقياس التقدم ، والنظريات المختلفة ، ومناقشة مفهومي التطور التدريجي والقفزة ، واتجاهات الخط العام[٣٨] .

الهوامـــش

(*) للمزيد من التفاصيل يراجع رسالة الماجستير للطالب محمد حمود ابراهيم (منهجية البحث الاجتماعي عند الدكتور عبد الجليل الطاهر) غير منشورة ، جامعة بغداد ، كلية الآداب عام ٢٠٠٣ .

١. موسوعة علم الاجتماع في العراق ، مجلة علوم انسانية

www.ulum.nl.

والموقع الالكتروني : http://ar.wikipedia.org/wiki

٢. عبد الجليل الطاهر ، مسيرة المجتمع ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص٨ .

٣. ص٨ – ٩ .

٤. ص٩.

٥. ص١٠ – ١١ .

٦. ص١٢ – ١٣ .

٧. ص٢٢ .

٨. ص٢٢ .

٩. ص٢٣ .

١٠. ص٢٣ .

١١. ص٢٣ .

١٢. ص٢٤ .

١٣. ص٥٦ .

١٤. ص٥٧ .

١٥. ٥٨ – ٥٩ .

١٦. ص٦٠ .

١٧. ص٦٠ .

١٨. ص٦٠ – ٦١ .

١٩. ص٦١ – ٦٢ .

٢٠. ص٦٣ .

٢١. ص٦٥ – ٦٦ .

٢٢. ص٧٩ – ٨٠ .

٢٣. ص٨٦ – ٨٧ .

٢٤. ص ٩٩ – ١٠٠ .

٢٥. ١٠٤ – ١٠٥ .

٢٦. ص١٠٥ – ١٠٦ .

٢٧. ص١٠٦ .

٢٨. ص١٠٦ – ١٠٧ .

٢٩. للمزيد من التفاصيل يراجع ص١٣٧ – ١٦٨ .

٣٠. لمزيد من التفاصيل يراجع ص١٦٩ – ١٩٨ .

٣١. للمزيد راجع ص ١٩٩ – ٢٢٨ .

٣٢. للمزيد راجع ص ٢٦١ – ٢٩٨ .

٣٣. للمزيد راجع ص٢٩٩ – ٣٣٢ .

٣٤. للمزيد راجع ص٣٣٣ – ٣٦٦ .

٣٥. للمزيد راجع ص٣٦٧ – ٤٠٦ .

٣٦. للمزيد راجع ص٤٠٧ – ٤٣٤ .

٣٧. للمزيد راجع ص٤٣٥ – ٤٧٠ .

٣٨. للمزيد راجع ص٤٧١ – ٤٨٨ .